إصدارات مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية
كلية العلوم الإسلامية - جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي - الجزائر

بحوث الملتقى الدولي الثامن

جهود علماء الغرب الإسلامي في تنزيل النص القرآني على الواقع

بتاريخ: 21و22 ربيع الثاني 1444هـ / الموافق لـ 15 و16 نوفمبر 2022

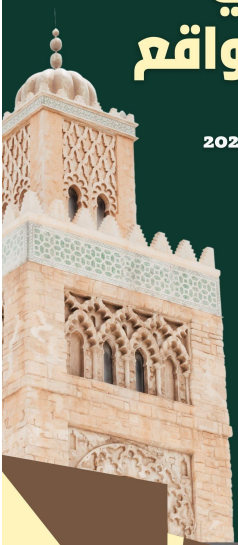

توظيف تنزيل النص القرآني عند ابن عاشور
من خلال تفسيره التحرير والتنوير

ط.د/ عبد الجبار بالقط ، إشراف: د/ عبد القادر شكيمة
معهد العلوم الإسلامية – جامعة الوادي
belgot-abdeldjabbar@univ-eloued.dz
chekima-abdelkader@univ-eloued.dz

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص

إنّ معالجة الآفات العقدية والأخلاقية والاجتماعية وغيرها داخل المجتمعات الإسلامية من مقاصد القرآن الكريم، التي اهتم بها بغية الحفاظ على تماسك وحدة المسلمين وتعزيز قوتهم؛ لذلك اعتنى المفسرون عامة وأهل الغرب منهم خاصة بهذا الجانب فآلوه اهتماما بالغا في إصلاح جميع ما يفسد ركائز المجتمع سواء من ناحية العقيدة أو العبادة أو الأخلاق أو المعاملات، ولعلّ ممن مثّل هذا الإصلاح في العصر الحديث هو مفسر الديار التونسية الشيخ محمد الطاهر بن عاشور من خلال ما كتب وما أودع في تفسيره التحرير والتنوير من تنظير وتطبيق. وفي هذا البحث حاولت إبراز جانب مما كتب ابن عاشور في معالجة ما وقع من أمور تناقض أحد ركائز ودعائم الوحدة داخل المجتمع المسلم بتنزيله بعض آي القرآن على الواقع، ولإبراز ذلك قسمت بحثي هذا إلى مبحثين، قدّمت بين يديهما بمقدمة للتعريف بالموضوع، وخصصت المبحث الأول للتعريف بالكلمات المفتاحية مع ترجمة موجزة لابن عاشور، وجعلت الثاني منهما لصلب الموضوع حيث تطرقت فيه إلى ذكر أنواع تنزيل النص القرآني على الواقع وفوائده، مع ذكر بعض النماذج التطبيقية من تفسير التحرير والتنوير، ثم ختمت كل ذلك بخاتمة ذكرت فيها بعض النتائج والتوصيات. ومن أهم تلكم النتائج هو اعتناء ابن عاشور بالجانب العقائدي عن طريق تنزيل النص القرآني على الواقع كونه أساس كل إصلاح.

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على النبي المبعوث رحمة للعالمين صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وسلّم تسليما مزيدا أمّا بعد:

لقد أنزل الله ﷻ القرآن الكريم نبراس حياة وجعله قدوة لمن أراد هداه واعتصم بحبله وطبق تعاليمه في حياته العبادية والمعاملاتية قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ (الأعراف: 51)، فجاء في ثناياه بتوجيهات سديدة وأوامر ربّانية ترمي إلى الإصلاح العام فريدة، سواء من جهة العقيدة بتحقيق التوحيد ونبذ الشرك أو من جهة العبادة بتصحيحها على وفق ما جاء به هدي النبي ﷺ من غير إحداث

ولا ابتداع أو من جهة الحياة الاجتماعية بالإئتمار بما أمر به سبحانه وتعالى بما يخدم الروابط الحميمية داخل الأسرة لتدوم عشرتها، والآصرة الاجتماعية داخل المجتمع المسلم لتدوم ألفته وتقوى شوكته، بل اهتم القرآن حتى بمنهج التعامل مع غير المسلمين؛ لذلك آلى أهل التفسير عامة وأهل المغرب منهم خاصة أهمية بالغة لمعالجة القضايا بإسقاط آي القرآن على الواقع المعاش؛ فيستنبطون منها أحكاما تصلح أحوالهم ودلالات تضبط صلتهم فيما بينهم، ومن ذلكم العلماء مفسّر الدّيار التّونسية الإمام محمد الطاهر بن عاشور -عليه رحمة الله- فقد اعتنى بهذا الجانب في تفسيره التحرير والتنوير، سواء في مقدمة تفسيره بذكر جانب من ذلك أو في ثنايا تحريره بالتطبيق العملي لما دلّت عليه آي القرآن بإسقاطها على واقع المجتمعات بغية إصلاح ما فسد منها من عقائد وعبادات وأخلاق.

وموضوع بحثي مندرج في إطار المحور الخامس من محاور هذا الملتقى بعنوان: توظيف تنزيل النص القرآني عند ابن عاشور من خلال تفسيره التحرير والتنوير.

إشكالية موضوع البحث:

لكل بحث وإن قصر إشكالية تطرح في مخيلة الباحث تبعث فيه حب الاطلاع، وبحث حثيث علّه يظفر بإجابة تروي غليله على تساؤلات كثيرة مندرجة تحت إشكال رئيس الذي هو بمثابة شرارة انقداح الفكرة في فؤاده وفكره، ولعل إشكاليّة بحثي الأساسية تمحورت في: هل كانت لابن عاشور عناية بتوظيف وتنزيل النص القرآني على واقع الناس؟ وللإجابة عن هذا الإشكال لابد من التعرض بالإجابة على تساؤلات فرعية ألخصها النقاط الآتية:

* كيف تعامل ابن عاشور مع النصوص القرآنية في ربطها مع الواقع في تفسيره؟
* ما هي الجوانب التي مسّها ابن عاشور بتنزيل النص القرآني عليها بغية إصلاحها؟
* ما هي ثمرة إسقاط وتنزيل آي القرآن على الواقع الذي يعيشه الناس؟

أهمية موضوع البحث:

تتجلى أهمية الموضوع في النقاط الآتية:

* تعلّقه بأصل التّشريع الأول ألا وهو كتاب الله ﷻ.
* إبراز جهود أحد العلماء المغاربة في خدمة هذا الجانب من التفسير والمقاصد القرآنية.
* تفصيل وبيان لنماذج تطبيقية من تفسير التحرير والتنوير في تنزيل بعض آيات القرآن على الواقع.
* دراسة هذا الموضوع فيه بيان لمقصد من مقاصد القرآن الكريم المتمثّل في الاهتمام بأحوال المجتمع المسلم والرقي به في درجات الرفعة والقوة.

الدراسات السابقة:

أمّا عن الدراسات السابقة فقد عثرت على ملخص دراسة متمثلة في مقال للباحثة خلود الكيلاني بمعية الدكتور عبد الله أحمد الزيوت منشور بتاريخ سبتمبر 2021 بجامعة الأردن تحت عنوان تنزيل الآيات على الواقع عند ابن عاشور (الناحية الاجتماعية

والاقتصادية نموذجا) وهي بلا شك أقرب دراسة، إلاّ أني لم أتمكن من تنزيل المقال بالكامل لعدم إتاحته لأطلع على ما حوى من نقاط بحثية، ثم إني وجدت دراسة ثانية للدكتور عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر تحت عنوان تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين (دراسة وتطبيق) وقد قسمه إلى قسمين افتتحهما بتمهيد عرف فيه بمفردات البحث، وجعل القسم الأول للدراسة النظرية وضمنه ثلاثة فصول وهي:

* الفصل الأول: أبان فيه عن معنى التنزيل وعلاقته بمسائل علوم القرآن.
* الفصل الثاني: تطرق فيه إلى نشأة تنزيل الآيات على الواقع، فوائده، حكمه وأنواعه.
* الفصل الثالث: تطرق فيه إلى طريقة القدامى في التنزيل.

ثم أتبعه بقسم ثان فجعله لتطبيق بعض المعاصرين لهذا التنزيل، وضمنه فصلين:

* الفصل الأول: جعله لتطبيق ظاهرة التنزيل في تفسير المنار.
* الفصل الثاني: جعله لتطبيق ظاهرة التنزيل في مجالس التذكير.

ثم ختم موضوعه بخاتمة ذكر فيها ملخص بحثه ونتائجه.

ويختلف بحثي عن البحثين المذكورين، كونه يدرس هاته الظاهرة عند ابن عاشور بتنزيل آي القرآن وتوظيفها في الواقع بشكل عام.

المنهج المتبع في البحث:

اعتمدت في بحثي على منهج الاستقراء الجزئي، وذلك باختيار مواضع من تفسير التّحرير والتنوير حيث

طبق ابن عاشور هاته الظاهرة، ثم درستها معتمدا في ذلك على المنهج التحليلي.

المنهجية المتبعة في كتابة البحث:

سلكت في العرض طريقة ذكر اسم السورة ورقم الآية بالمتن، وتخريج الأحاديث والآثار بالهامش مكتفيًا في التخريج بالصحيح أو الصحيحين إنْ كان الحديث فيهما، وإن لم يوجد فيهما أو في أحدهما فأعزوه إلى كتب السّنن أو غيرها من كتب الحديث المعتمدة، وكذلك الحال بالنسبة للنقول من كتب أهل العلم أذكر اسم الكتاب ومؤلِّفه ومن حقّقه إن وُجد ثم أذكر الجزء والصفحة وأُتبعها بذكر دار النشر وسنة الطبع وهذا يكون أوّل مرة أنقل فيها من الكتاب، لأكتفي فيما بعد إن عاودت النّقل منه باسم المؤلَّف والمؤلِّف المشهورين بهما، والجزء والصفحة فقط. كما أني استعملت علامات الترقيم حسب ما يقتضيه المقام وتستوجبه منهجيّة كتابة البحوث.

وصف عام لخطة البحث:

افتتحت البحث بمقدمة اشتملت على التعريف بالموضوع وبيان أهميته والإشكالية التي يتمحور عليها مع ذكر بعض الدراسات السابقة في الموضوع وغيرها من عناصر المقدمة كما ستراها، ثمّ ثنيت بمبحث تمهيدي عرّجت فيه على التعريف بالكلمات المفتاحية المكونة لعنوان البحث، مع ذكر ترجمة وجيزة لابن عاشور.

قسمت صلب الموضوع إلى مبحثين:

خصصت المبحث الأول بدراسة نماذج تطبيقية لابن عاشور حيث وظف النص القرآني ونزّله على واقع عصر سابق، وثنيت بآخر فجعلته لدراسة بعض النماذج التطبيقية حيث نزلها ابن عاشور على الواقع الحديث.

ثم ختمت البحث بخاتمة ذكرت فيها أهمّ النتائج المتوصّل إليها مع بعض التوصيات التي ظهرت لي من خلال معالجتي للبحث.

هذا وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يغفر لنا الزلاّت ويعفوا عن السقطات والفلتات، إنّه ولي ذلك والقادر عليه.

المبحث التمهيدي: التعريف بالكلمات المفتاحية للبحث مع ترجمة موجزة لابن عاشور

المطلب الأول: التعريف بالكلمات المفتاحية للبحث.

يرتكز عنوان بحثي على كلمتين هما: النص القرآني والواقع.

أولا: تعريف النص القرآني: النص القرآني مركب إضافي يستوجب تعريفه تعريف حديه المكون منهما أولا.

النص لغة: النون والصاد أصل صحيح يدلّ على رفع وارتفاع وانتهاء في الشيء. منه قولهم نصَّ الحديثَ إلى فلان: رفعه إليه. والنصُّ في السّير أرفعه...، ونصُّ كل شيء: منتهاه[1].

وقال في اللسان: " النصّ: رفعك الشيء. نص الحديث ينصُّه نصًّا: رفعه. وكل ما أظهر، فقد نُصَّ"[2].

من خلال ما عرضت من التعريف اللغوي للنص يظهر أنّه يدور حول ثلاثة معانٍ وهي: الرفع والانتهاء والظهور. إذن فالنص لغة: ما ازداد رفعة في الظهور حتى بلغ منتهاه.

النص اصطلاحا: لا شكّ أنّ المعنى الاصطلاحي للنصّ مستمدّ من معناه اللغوي؛ لذلك قيل في تعريفه:

هو ما ازداد وضوحًا على الظاهر لمعنى المتكلم، حتى لا يحتمل إلاّ وجها واحدا لا يقبل التأويل[3].

القرآن لغة: قال في اللّسان: " القرآن معنى الجمع، وسمي قرآنا لأنّه يجمع السّور، فيضمّها. وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ** ﴾ (القيامة: 16)، أي جمعه وقراءته، ﴿

---

1 - معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام محمد هارون، (356/5)، دار الفكر، ط: 1399هـ / 1979م.

2 - لسان العرب، ابن منظور، (97/7)، دار صادر – بيروت، ط 3: 1414 هـ

3 - ينظر: كتاب التعريفات، الجرجاني، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، ص 241، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ط 1: 1403هـ /1983م. والتعريفات الفقهية، محمد البركتي، ص 228، دار الكتب العلمية، ط 1: 1424هـ / 2003م.

﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ (القيامة: 17)، أي قراءته... وقرأت الشيء قرآنا: جمعته وضممت بعضه إلى بعض"[1]

القرآن شرعا: هو المنزّل على الرسول ﷺ المكتوب في المصاحف المنقول عنه نقلاً متواترًا بلا شبهة[2].

بعد تعريفي لكلا حدي المركب الإضافي يمكنني أن أعرّف النص القرآني فأقول:

النص القرآني: هو المنزّل على الرسول ﷺ المكتوب في المصاحف المنقول عنه نقلاً متواترًا القطعي الدّلالة.

ثانيا: تعريف الواقع

الواقع لغة:

قال في مقاييس اللغة: " وقع: الواو والقاف والعين أصل واحد يرجع إليه فروعه، يدلّ على سقوط شيء. يقال: وقع الشيء وقُوعا فهو واقعٌ، والواقعة: القيامة، لأنها تقع بالخلق فتغشاهم "[3].

وقال ابن منظور: " وقع على الشيء ومنه يقع وقعا ووقوعا: سقط،... والواقعة: النازلة من صروف الدهر...، وواقع المرأة ووقع عليها. جامعها"[4].

من خلال ما نقلت عن أهل اللغة في لفظ "الواقع" يتبين أنه يدور حول النزول والسقوط والغشيان، فالواقع إذن هو ما حل بالمجتمع من أمور وحوادث فتعمهم وتغشاهم كأنها بهم لصيقة.

الواقع اصطلاحا:

الواقع بشكل عام أمر متعارف عليه بين الناس ويقصدون به الحال التي يكون عليها أمرهم، وهو بلا شك مستمد من معناه اللغوي من حلول الأمر وغشيانه المجتمع.

فإذا تقرّر هذا يمكنني أن أعرف الواقع اصطلاحيا فأقول:

وقد عرّفه الضامر بقوله: "الواقع: هو عبارة عن السنن الإلهية والأفعال الإنسانية الحاصلة في الزمن المعاصر"[5].

فتقييد الضامر الواقع بما وقع من السنن الإلهية والأفعال الإنسانية في الزمن المعاصر، هو المقصود عند الإطلاق، لكن قد يكون من أهل التفسير ممن ينزّل بعض الآيات على واقع

---

1 - لسان العرب، ابن منظور، (128/1).

2 - التعريفات، الجرجاني، ص 174. والتعريفات الفقهية، محمد البركتي، ص 172 ببعض التصرف.

3 - مقاييس اللغة، ابن فارس، (133/6-134).

4- لسان العرب، ابن منظور، (402/8-405).

5 - تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين دراسة وتطبيق، عبد العزيز الضامر، ص 29، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط1: 1428هـ /2007م.

زمن مضى كما سأورده وتجده في هذا البحث.

إذا تقرّر هذا فيمكنني القول بأنّ **الواقع**: هو الحال التي يكون عليها أمر الناس وتغشاهم من خير أو شر.

المطلب الثاني: ترجمة موجزة لابن عاشور

أولا: اسمه، نسبه، مولده ونشأته الأولية[1]:

هو محمد الطاهر بن الشيخ محمد بن الشيخ محمد الطاهر بن الشيخ محمد بن الشيخ محمد الشاذلي بن العالم الصالح عبد القادر بن العالم الزاهد الشيخ مَحمد بن عاشور... وقد برز في هذه العائلة جدّ مترجمنا محمد الطاهر بن عاشور لتقلده مناصب هامة في القضاء والإفتاء والتدريس والإشراف على الأوقاف الخيرية، وغيرها. كما برز والد المترجم له محمد بن عاشور الذي تولى رئاسة مجلس دائرة جمعية الأوقاف.

وقد استحكمت الصّلة بين الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الجدّ وتلميذه العالم محمد العزيز بوعتُّور، نتج عنها زواج مبارك بين محمد بن عاشور وابنة الشيخ محمد العزيز بوعتّور فاطمة، فانجبا صاحب ترجمتنا الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الحفيد.

ولد محمد الطاهر بن عاشور بالمرسى وهي مدينة جميلة قرب العاصمة التونسية، في بيت جدّه لأمّه، فنشأ في رحاب العلم، حيث ابتدأ سيرورته بحفظ القرآن الكريم على يد الشيخ المقرئ محمد الخياري، ثم حفظ مجموعة من المتون العلمية كالآجرومية في النحو وابن عاشر في الفقه المالكي وغيرها.

ثانيا: حياته العلمية والعملية:

بعد بلوغ ابن عاشور سن الرابعة عشر من عمره وقد سبق له أنه حفظ القرآن وبعض المتون العلمية دخل جامع الزيتونة الأعظم، وشرع ينهل من معينه بتوجيه من والده وجده لأمه وأساتذته، فقرأ القطر والمقدمة والمكودي ولامية الأفعال وغيرها في النحو، وقرأ الدمنهوري على السمرقندية والتلخيص بشرح المطول للسعد وغيرهما في البلاغة، ودرس المزهر للسيوطي والحماسة بشرح المرزوقي والمثل السائر لابن الأثير في اللغة، وقرأ الدردير وميارة على المرشد والكفاية على الرسالة والتاودي على التحفة في الفقه، وقرأ الحطاب على الورقات والتنقيح على القرافي وغيرهما في أصول الفقه، ودرس الصحيحين وغيرهما في الحديث، إلى جانب المنطق والتاريخ والسيرة وعلم الكلام حتى تكونت له مكنة وملكة علمية متنوعة.

وقد تتلمذ عن شيوخ عدة منهم:

- جدّه لأمه الشيخ الوزير محمد العزيز بوعتّور: فهو بمثابة الشيخ الأول والموجه لسبطه.
- عمر بن الشيخ: أخذ عنه شرح كتاب المواقف للإيجي، كما تلقى عنه دروس تفسير

1- محمد الطاهر بن عاشور، علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلومه، إياد خالد الطّباع، ص 22-24، دار القلم، ط 1: 1426هـ/2005م.

البيضاوي.

- الشيخ سالم بوحاجب: درس عليه كتب الحديث والسنة مثل القسطلاني على البخاري، والزرقاني على الموطأ.[1]

بعد إحراز صاحب ترجمتنا على شهادة التطويع سنة 1317 هـ، انتصب للتدريس بالجامع الأعظم، وفي سنة 1320 هـ ارتقى إلى رتبة مدرس من الطبقة الثانية، وبعدها بسنة واحدة انتدب للتدريس بالمدرسة الصادقية وبقي بها إلى سنة 1351هـ ثم بقي يتدرج في المسؤوليات إلى أن عين عميدا للجامعة الزيتونية إثر استقلال تونس سنة 1376هـ وبقي في هذا المنصب إلى غاية 1380 هـ.[2]

وقد تتلمذ عليه تلاميذ كثر منهم:

- محمد الصادق بن الحاج محمود.
- الشطي محمد الصادق بن محمد.
- محمد الفاضل بن محمد الطاهر بن عاشور.
- ابن شعبان أبو الحسن بن شعبان.[3]

ثالثا وفاته:

بعد حياة ملؤها التعليم والعلم والنشاط والعطا يفارق الإمام محمد الطاهر بن عاشور الحياة لينتقل إلى الرفيق الأعلى عن عمر بلغ التسعين سنة ويزيد عنها بأربع، وذلك في ضاحية المرسى قرب تونس العاصمة يوم الأحد الثالث عشر من شهر رجب سنة 1394هـ، ودفن بمقبرة الزلاج بتونس.[4]

المبحث الثاني: توظيف وتنزيل النص القرآني على الواقع.

اعتنى ابن عاشور بهذا المقصد النبيل، حتى جعله أولى المقاصد الشرعية للقرآن الكريم المتمثلة في الإصلاح العام، كالإصلاح العقدي والأخلاقي وغيرهما بدءًا من اللبنة الأولى المكونة للمجتمع؛ لذلك جمع بين التنظير له في مقدمة تفسيره، والتطبيق العملي بتنزيل آياته على الحياة الاجتماعية بغية إصلاحها وترميم ما فسد منها خلال تحريره، قال في المقدمة الرابعة: "إنّ القرآن أنزله الله تعالى كتابا لصلاح أمر الناس كافة رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم قال الله تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ**

1 - ينظر شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، بلقاسم الغالي، ص 37-46، دار ابن حزم، ط 1: 1417هـ/1996م.

2 - ينظر محمد الطاهر بن عاشور علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلومه، إياد خالد الطباع، ص 50-55.

3 - ينظر المرجع نفسه، ص 44-49.

4 - ينظر: شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، بلقاسم الغالي، ص68. ومحمد الطاهر بن عاشور علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلومه، إياد خالد الطباع، ص87.

لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل: 89)، فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرانية، فالصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس وتزكيتها، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد لأنّ الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة، والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد والكبر. وأما الصلاح الجماعي فيحصل أولا من الصلاح الفردي إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه..."[1].

إذن فالإصلاح العام مبدؤه إصلاح الفرد في جميع الميادين خاصة تلك التي تكون ذات صلة وثيقة ومباشرة بالمجتمع كالإصلاح الأخلاقي الذي من شأنه حماية آصرتهم الاجتماعية؛ لما له من أثر في توادهم وتراحمهم، ولا أدلّ على ذلك من قول النبي ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[2].

فانظر كيف جعل النبي ﷺ خلق إفشاء السلام بين أفراد المجتمع المسلم سبب في تحقيق نشر المحبة والألفة بينهم ليكون مجتمعا قويا متماسكا.

ولبيان عناية القرآن بهذا المقصد أوّلا، ثم لإظهار جهود ابن عاشور أحد علماء الغرب الإسلامي في تنزيل النص القرآني على الواقع ثانيا، ولما كان من منهج ابن عاشور تقسيم آي القرآن في هذا المجال إلى قسمين، قسم منها جعل تنزيلها على وقت مضى، وقسم ثان جعل تنزيله على العصر الحديث حسب حوادث الزمان وتجدد الآفات؛ لذا قسمت هذا المبحث إلى مطلبين ذكرت في الأول منهما أنواع تنزيل النص القرآني وفوائده عموما، وجعلت الثاني منهما في ذكر بعض الأمثلة التطبيقية من تفسير التحرير والتنوير حيث وظف ابن عاشور النص القرآني في الإصلاح العقائدي والأخلاقي وغيرهما.

المطلب الأول: أنواع تنزل النص القرآني على الواقع وفوائده[3].

الفرع الأول: أنواع تنزيل النص القرآني على الواقع.

نزل القرآن الكريم تبيانا لكل شيء ومصلحا لكل فساد ظهر وسيظهر، فهو كتاب جامع لكل خير، مصلح لكل مفسد مقوّم لكل معوج، قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل: 89)؛ لذلك تنوعت تنزيلاته على الواقع بحسب الأحداث والوقائع، وفيما يلي أذكر أنواع التنزيل التي استعملها أهل العلم.

---

1 - التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (38/1)، الدار التونسية للنشر – تونس، ط: 1984هـ.

2 - رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يخل الجنة إلا المؤمنون وأن محبة المؤمنين من الإيمان وأن إفشاء السلام سب لحصولها، رقم: 93، (44/1)، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط1: 1427 هـ/2006م.

3 - ينظر بحث هذا المطلب في تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، عبد العزيز الضامر، ص71-88.

أولا: تنزيل النص القرآني باعتبار التصريح أو التلميح.

أ-تنزيل الآيات على الواقع تصريحا.

عادة ما يصرّح أهل التفسير بتنزيل النص القرآني على واقع ما فيذكر ضمن تفسيرها الحادثة أو القضية المراد معالجتها بتلك الآية، ويعبر عن التنزيل بعبارة صريحة كأن يقول: وهذا ما وقع في مجتمعنا من كذا وكذا، أو ما حدث في الزمن الفلاني أو ما إلى ذلك من العبارات الدالة صراحة على توظيف النص القرآني وتنزيله على تلك الحادثة، وهذا النوع هو السائد والذائع في كتب التفسير.

ومثال ذلك: ما جاء في التحرير والتنوير وهو يتحدث عن الاختلاف والاقتتال الواقع بعد الرسل وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَلَـٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟** ﴾ (البقرة: 251)، قال ابن عاشور: " ... كما وقع لبني إسرائيل في عصور كثيرة...، وكما وقع للنصارى في عصور..."[1].

ب-تنزيل الآيات على الواقع تلميحا.

هذا النوع من التنزيل واقع بدرجة أقل من سابقه، ويكون توظيف النص القرآني فيه تلويحا وتلميحا لا تصريحا، ووقوعه بهذا الشكل يكون لأمور يقصدها المفسر من عدم التشنيع بالشيء المراد تصحيحه أو الفساد المراد إصلاحه، ويكون عن طريق إشارة المفسر أن هذا الأمر واقع في عصره أو مجتمعه من غير تشهير فيصلح المخالفة من غير إحداث فتنة.

ومثال ذلك ما جاء عن ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿ **فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ (البقرة: 180)، حيث قال: "... والمقصود من هذا القصر إبطال تعلل بعض الناس بترك الوصية بعلة خيفة ألا ينفذها الموكول إليهم تنفيذها..."[2].

فأبهم ابن عاشور الواقع من بعض من هو يعرفهم وربما أنه أستفتي من بعضهم في هاته المسألة فقال: "تعلل بعض الناس" ليصلح هاته المخالفة من غير تشهير ممن وقع في مثل هذا الإثم.

ثانيا: تنزيل النص القرآني باعتبار الكلية أو الجزئية.

أ-تنزيل النص القرآني باعتبار الكلية.

المقصود بالتنزيل الكلي هو توظيف النص القرآني في واقعة باعتبار ما دل عليه كليا، فيذكر المفسر الحاثة أو القضية بما يطابق معنى الآية تماما.

ومثال ذلك ما جاء عن ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ**

1 - ينظر التحرير والتنوير، ابن عاشور، (10/3).

2 - المرجع نفسه، (152/2).

﴿ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ يُغْفَرْ لَكُمْ خَطَٰيٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ ٱلذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلذِے قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ (البقرة: 57- 58)، حيث ذكر قصة وقعت لبني إسرائيل ثم أردفها بقوله: "فهذه الآية تنطبق على هذه القصة تمام الانطباق..."[1].

ب-تنزيل النص القرآني باعتبار الجزئية.

المقصود بالتنزيل الجزئي هو أن يعمد المفسر إلى النص القرآني فينزل بعض ما دل عليه على واقعة معينة.

ومثال ذلك: ما جاء عن ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَآ تَاكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِالْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَاكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ اَمْوَالِ ٱلنَّاسِ بِالِاثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 187)، حيث قال: "كان أكل المال بالباطل شنشنة معروفة لأهل الجاهلية بل كان أكثر أحوالهم المالية، فإنّ اكتسابهم كان من الإغارة ومن الميسر، ومن غصب القوي مال الضعيف، ومن أكل الأولياء أموال الأيتام واليتامى، ومن الغرر والمقامرة، ومن المراباة ونحو ذلك، وكل ذلك من الباطل الذي ليس عن طيب نفس"[2].

فذكر ابن عاشور ما كان عليه أهل الجاهلية من أكل للأموال بالباطل دون ذكر ما دلت عليه أيضا من الإدلاء إلى الحكام بغية ذلك؛ فجعل إسقاط الآية على أهل الآية جزئيا.

الفرع الثاني: فوائد تنزيل النص القرآني على الواقع.

لا شك أنّ لكل مقصد من مقاصد القرآن الكريم فوائد وثمار تجنى من استغلاله وتطبيقه، ومن ذلكم تنزيل وتوظيف النص القرآني على واقع الناس في جميع ميادين حياتهم، وسأذكر في هذا الفرع بعضا من الفوائد المستقاة من تطبيق أهل التفسير لهذا المقصد.

أولا: توثيق أبرز الأحداث التاريخية:

من خلال إسقاطات المفسر لآي القرآن على الواقع في زمنه الذي عاش فيه، يستفيد منه المؤرخ في توثيق الأحداث التي وقعت خلال تلك الفترة.

قال أحمد أمين: " فيظهر أن تفسير القرآن كان في كل عصر من العصور المتأخرة بالحركة العلمية فيه، وصورة منعكسة لما في العصر من آراء ونظريات علمية ومذاهب دينية...، حتى لتستطيع إذا جمعت التفاسير التي ألفت في عصر من العصور أن تتبين فيها

1 - المرجع السابق، (513/1).

2 - المرجع نفسه، (187/2).

مقدار الحركة العلمية وأي الآراء كان سائدا شائعا وأيها غير ذلك وهكذا"[1].

ثانيا: تقريب معنى الآية من أفهام الناس.

فضرب المثل وتنزيل الآية على حادثة تقريب للفهم وتجلية لما قد يبهم من معنى عن كثير من الناس، ألا ترى أن الآية قد يفوت معناها كثيرا من المتدبرين لها، لكن بمعرفة سبب نزولها يظهر إجمالها ويتضح مرادها. وضرب المثل لها وتنزيل المفسر لها على واقعة معينة شبيه بالسبب الذي تنزل عليه الآية، وقديما قيل وبالمثال يتضح المقال.

قال ابن تيمية: " ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية؛ فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب"[2].

ثالثا: ربط المسلم بأصل دينه الأول.

تنزيل آيات القرآن الكريم على الواقع الذي يعيشه المسلم لحل إشكالاته وتصحيح أخطائه، يستفاد منه ربط الفرد المسلم بالقرآن الكريم، فبه يحي وإليه يلجأ في فك معضلاته، فإن فعل ذلك استقامت حياته قال تعالى: ﴿**فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ**﴾ **(طه: 121-122).**

فهذه بعض الفوائد التي قد تستفاد من تنزيل النصوص القرآنية على الواقع الذي يعيشه المسلم.

المطلب الثاني: تنزيل النص القرآني على الواقع.

الفرع الأول: تنزيل النص القرآني على واقع عصر سابق.

تنزيل الآيات القرآنية وإن كان على واقع زمن سابق إلا أنه يحمل في طياته دعوة إلى الإصلاح العقدي والديني في الواقع الحديث؛ إذ القرآن كتاب هدى ونور صالح لكل زمان ومكان قال تعالى: ﴿ **ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا** ﴾ (المائدة: 4)، لهذا كان القرآن دستور حياة لكل من أراد الاستقامة، ومصلح كل من أراد الإصلاح في جميع ميادين الحياة. وفيما يلي سأورد بعض النماذج التطبيقية لابن عاشور من خلال تفسيره.

النموذج الأول: في تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟** ﴾ (البقرة: 251).

---

1 - فجر الإسلام، محمد أمين، ص 225، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهر –مصر، د ط ولا سنة نشر.

2 - مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية، ص 16، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط: 1390هـ/ 1980م.

الدراسة:

قال ابن عاشور في تفسيرها: "يجوز أن يكون الضمير المضاف إليه في قوله: ﴿**مِنْ بَعْدِهِم**﴾ مرادا به جملة الرسل أي ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعد أولئك الرسل من الأمم المختلفة في العقائد مثل اقتتال اليهود والنصارى في اليمن في قصة أصحاب الأخدود، ومقاتلة الفلسطينيين لبني إسرائيل انتصارا لأصنامهم، ومقاتلة الحبشة لمشركي العرب انتصارا لبيعة القليس التي بناها الحبشة في اليمن، والأمم الذين كانوا في زمن الإسلام وناووه وقاتلوا المسلمين أهله، وهم المشركون الذين يزعمون أنهم على ملة إبراهيم واليهود والنصارى...، ويجوز أن يكون ضمير ﴿**مِنْ بَعْدِهِم**﴾ ضمير الرسل على إرادة التوزيع، أي الذين من بعد كل رسول من الرسل، فيكون مفيدا أنّ أمّة كل رسول من الرسل اختلفوا واقتتلوا اختلافا واقتتالا نشآ من تكفير بعضهم بعضا كما وقع لبني إسرائيل في عصور كثيرة بلغت فيها طوائف منهم في الخروج من الدين إلى حد عبادة الأوثان، وكما وقع للنصارى في عصور بلغ فيها اختلافهم إلى حد أن كفر بعضهم بعضا، فتقاتلت اليهود غير مرة قتالا جرى بين مملكة يهوذا ومملكة إسرائيل، وتقاتلت النصارى كذلك من جراء الخلاف بين اليعاقبة والملكية قبل الإسلام، وأشهر مقاتلات النصارى الحروب العظيمة التي نشأت في القرن السادس عشر من التاريخ المسيحي بين أشياع الكاثوليك وبين أشياع مذهب لوثير الراهب الجرماني الذي دعا الناس إلى إصلاح المسيحية واعتبار أتباع الكنيسة الكاثوليكية كفارا لادعائهم ألوهية المسيح، فعظمت بذلك حروب بين فرانسا وأسبانيا وجرمانيا وانكلترا وغيرها من دول أوروبا. والمقصود تحذير المسلمين من الوقوع في مثل ما وقع فيه أولئك"[1].

فانظر كيف نزل ابن عاشور هذا النص القرآني على أمم كثيرة ممن سبقتنا، وضرب بهم المثل في افتتانهم واقتتالهم، الناتج من خراب العقيدة، وكل ذلك -أي تنزيله النص القرآني- قاصد به الإصلاح العقائدي للمجتمع المسلم وتحذيره مما وقعوا فيه من الاختلاف والفرقة.

النتيجة:

توظيف ابن عاشور لهذا النص القرآني وتنزيله على واقع أمم خلت وما وقع بينهم من فساد عقائدي نتج عنه اختلاف وتناحر، جعله بمثابة البلسم الذي يرمي إلى الإصلاح العقائدي للفرد حتى يتحقق لهم الاجتماع وتبعد عنهم الفرقة والاختلاف.

النموذج الثاني: في تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ**﴾ (البقرة:281).

الدراسة:

قال ابن عاشور في تفسيرها: " قال القرطبي: "يؤخذ من هذه الآية أنه يجوز للإمام أن

1 - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (3م9-10).

يقيم للناس شهودا، ويجعل لهم كفايتهم من بيت المال، فلا يكون لهم شغل إلا تحمل حقوق الناس حفظا لها"[1]، قلت -أي ابن عاشور-: وقد أحسن قضاة تونس المتقدمون، وأمراؤها، في تعيين شهود منتصبين للشهادة بين الناس، يؤخذون ممن يقبلهم القضاة ويعرفونهم بالعدالة، وكذلك كان الأمر في الأندلس، وذلك من حسن النظر للأمة، ولم يكن ذلك متبعا في بلاد المشرق، بل كانوا يكتفون بشهرة عدالة بعض الفقهاء وضبطهم للشروط وكتب الوثائق فيعتمدهم القضاة، ويكلون إليهم ما يجري في النوازل من كتابة الدعوى والأحكام، وكان مما يعد في ترجمة بعض العلماء أن يقال: كان مقبولا عند القاضي فلان"[2].

فتوظيف ابن عاشور لهاته الآية وتنزيله إياها على مجتمع بلده تونس في زمن متقدم، بتحسينه فعل القضاة المتقدمين وأمرائها من اختيار شهود عدولا يستعملون في الشهادة بين الناس، فجعله من حسن النظر والتدبير للأمة في تحقيق العدل بينهم وإلحاق كل ذي حق بحقه، فيه إيحاء لإصلاح ما فسد من المنظومة القضائية عندهم في زمنه، ودعوة لمن له الأمر أن يتأسّى بمن مضى في تحقيق العدل عبر تعيين من هو حقيق بهذا الأمر ولو جعل لهم جُعل من بيت المال لكفاية مؤنتهم ومعيشتهم، فلا يكون لهم شغل إلا تحمل حقوق الناس حفظا لها كما قال القرطبي -رحمه الله-.

ولبيان أهمية العدل في الإصلاح العام قال ابن عاشور في كتابه أصول النظام الاجتماعي: " وحسن العدل

مستقر في الفطرة فإن كل نفس تنشرح لمظاهر العدل ما كانت النفوس بمعزل عن هوى يغلب عليها في قضية خاصة أو في مبدأ خاص تنتفع فيه بما يخالف العدل... إلى أن قال: واتفقت الشرائع والحكماء على التنويه بالعدل وأهميته وكفاك قول الحكيم أرسطاطاليس في دائرته: العدل مألوف به صلاح العالم"[3].

النتيجة:

تنزيل هذا النص القرآني على واقع مجتمع مضى وما حقق من آثار حسنة فيه إيماء بتطبيقه في واقعنا اليوم لتحقيق العدل الذي هو أحد ركائز ودعائم وحدة وقوة المجتمع المسلم.

النموذج الثالث: في تفسير قوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلذِينَ تَوَفَّيٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلاَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنَ ارْضُ ٱللَّهِ وَاسِعَةً**

1 - الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، (398/3)، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط 2: 1384هـ/ 1964م.

2 - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (113/3).

3- أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ابن عاشور، ص186، الشركة التونسية للتوزيع- تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر، ط 2. لا سنة نشر.

﴿فَتُهَاجِرُواْ فِيهَآ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيراً ۝٩٧ إِلاَّ ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَالنِّسَآءِ وَالْوِلْدَٰنِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ (النساء: 96-97).

الدّراسة:

قال ابن عاشور في تفسيرها: " وقد اتفق العلماء على أنّ حكم هذه الآية انقضى يوم فتح مكة لأنّ الهجرة كانت واجبة لمفارقة أهل الشرك وأعداء الدين، وللتمكن من عبادة الله دون حائل يحول عن ذلك، فلما صارت مكة دار إسلام ساوت غيرها...، غير أن القياس على حكم هذه الآية يفتح للمجتهدين نظرا في أحكام وجوب الخروج من البلد الذي يفتن فيه المؤمن في دينه، وهذه أحكام يجمعها ستة أحوال:

الحالة الأولى: أن يكون المؤمن ببلد يفتن فيه في إيمانه فيرغم على الكفر وهو يستطيع الخروج، فهذا حكمه حكم الذين نزلت فيهم الآية، وقد هاجر مسلمون من الأندلس حين أكرههم النصارى على التنصر، فخرجوا على وجوههم في كل واد تاركين أموالهم وديارهم ناجين بأنفسهم وإيمانهم، وهلك فريق منهم في الطريق وذلك في سنة 902 م وما بعدها إلى أن كان الجلاء الأخير سنة 1016م"[1].

اقتصرت على الحالة الأولى التي ذكرها ابن عاشور لما فيها من تنزيل الآية على واقع ذلك الزمن، حيث هاجر المسلمون من الأندلس لما أكرههم النصارى على دينهم وعقيدتهم الإسلامية، ففروا ناجين بدينهم، وحماية عقيدتهم ودينهم أصل حماية مجتمعهم المسلم وبفقدانهما يحدث فيهم التفرق والتشرذم، قال تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰناً**﴾ (آل عمران: 103).

قال ابن عاشور بعد أن ذكر جانبا من الإصلاح العقائدي في كتابه أصول النظام الاجتماعي: " وأن أمة ينشأ اعتقاد دينها على هذه الأصول تنشأ لا محالة على عزة النفس، والاهتمام بالاعتماد على استجلاب الأشياء من أسبابها، ورجاء الإعانة والبركة من الخالق، وذلك يدرب على قوة الإرادة والشعور بالرفعة عن التضليل والأوهام"[2].

فأصل الحفاظ على المجتمع الإسلامي هو إصلاح عقيدة الفرد داخل ذلك المجتمع؛ لذلك فرّ المسلمون -الذين تم تنزيل ابن عاشور الآية على حالهم- من الأندلس لما ضايقهم النصارى في أصل دينهم ليبنوا مجتمعا متماسكا بعقيدة إسلامية تجمعهم ولا تفرقهم، وفي هذا إيماء لتصحيح ما فسد من عقائد المسلمين في الوقت الحاضر والهجرة من بلد الكفار إلى بلد المسلمين لحماية دينهم.

---

1 - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (178/5).

2 - أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ابن عاشور، ص 51.

النتيجة:

بناء على ما سبق فإن بناء مجتمع مسلم متماسك البنيان قويُّ الأركان لا يكون إلاّ بالحفاظ على العقيدة الإسلامية لدى الفرد والمجتمع المسلم.

النموذج الرابع: في تفسير قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ** ﴾ (الأنعام: 160).

الدراسة:

قال ابن عاشور في تفسيرها: " ووصف المشركين بأنهم فرقوا دينهم وكانوا شيعا: يؤذن بأنه وصف شنيع، إذ ما وصفهم الله به إلا في سياق الذم، فيؤذن ذلك بأن الله يحذر المسلمين من أن يكونوا في دينهم كما كان المشركون في دينهم، ولذلك قال تعالى: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحاً وَالذِيۤ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦۤ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰۤ أَنَ آقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ** ﴾ (الشورى: 11). وتفريق دين الإسلام هو تفريق أصوله بعد اجتماعها، كما فعل بعض العرب من منعهم الزكاة بعد رسول الله ﷺ فقال أبو بكر ﷺ: (لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة)"[2].

انظر كيف وظف ابن عاشور الآية الناهية عن التفرّق ونزلها على فعل المرتدين بعد وفاة النبي ﷺ في منعهم الزكاة بحجة أنهم كانوا يعطونها للنبي ﷺ وقد تُوفّي، فقاتلهم أبو بكر ﷺ في تفريقهم بين عبادتين جليلتين من ركائز الإسلام وهي الصلاة والزكاة، وكان في منعهم الزكاة وتفريقها عن الصلاة سبيل للتفرق والتشرذم وإضعاف وحدة المجتمع المسلم.

ولا شك أن في ضعف الدين وذهاب أصوله عند كثير من المسلمين يضعف شوكتهم؛ لذلك حذر منه سبحانه وتعالى في كتابه في غير ما موضع.

وفي تنزيل ابن عاشور الآية على المرتدين الذين قاتلهم أبو بكر ﷺ، فيه إيماء إلى تحذير المسلمين من الوقوع في مثل ما وقع أولئك من التفريق بين أصول الدين، ليحافظوا على وحدتهم المأمورين بإقامتها.

النتيجة:

بناء على ما سبق من البيان فإنّ توظيف ابن عاشور للآية وتنزيلها على واقع زمن سابق، فيه دعوة إلى الإصلاح العقائدي داخل المجتمع المسلم بتحذيره من الوقوع في مثل ما

---

1 - جزء من أثر طويل رواه البخاري في صحيحه، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، وقد أخرجه في عدة مواضع منها: كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم 1399، (105/2)، دار طوق النجاة، ط 1: 1422هـ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ، رقم 20، (31/1).

2 - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (8-أ/ 193-194).

وقع فيه أولئك المرتدين.

الفرع الثاني: تنزيل النص القرآني على واقع العصر الحديث.

لما كان القرآن صالحا لكل زمان ومكان، كان تنزيل آيه الكريمة على واقع المجتمعات الإسلامية بغية إصلاح ما فسد منها من عقائد وعبادات وأخلاق ومعاملات أمرا مهما بل هو الطريق الصحيح في تشخيص الآفات التي يعاني منها المجتمع المسلم اليوم، وهو البلسم الحق في معالجة الأمراض الخرافية التي سادت مجتمعاتنا الإسلامية، قال تعالى: ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ** ﴾ (الإسراء: 82)، لهذا اهتم علماء التفسير عامة وأهل الغرب منهم خاصة بهذا المقصد اهتماما كبيرا، ولبيان جانب من ذلك سأورد بعض النماذج التطبيقية لابن عاشور من خلال تفسيره التحرير والتنوير.

النموذج الأول: في تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾ (النساء: 32).

الدراسة:

قال ابن عاشور في تفسير الآية: " وقد أصبح هذا التمني في زماننا هذا فتنة لطوائف من المسلمين سرت لهم من أخلاق الغلاة في طلب المساواة مما جر أمما كثيرة إلى نحلة الشيوعية فصاروا يتخبطون لطلب التساوي في كل شيء ويعانون إرهاقا لم يحصلوا منه على طائل. فالنهي عن التمني وتطلع النفوس إلى ما ليس لها جاء في هذه الآية عامًّا...، فكان من جوامع الكلم في درء الشرور. وقد كان التمني من أعظم وسائل الجرائم، فإنه يفضي إلى الحسد..."[1].

استغل ابن عاشور هاته الآية في التحذير من دعوى ظهرت في عصرنا الحديث والمتمثلة في طلب المساواة بين الرجل والمرأة في كل الميادين حتى لا يدع لكل جنس خاصيته، ولا شك أنها دعوة هدّامة تنخر في وحدة المجتمع المسلم وأخلاقه؛ لهذا وظّف -رحمه الله- وأسقط النهي الموجود بالآية على الواقع السائد على طوائف من المسلمين لبيان سوء عاقبته المتمثلة في عدم حصول بغيتهم التي يأملون من جهة، ثم تفشي الحسد -الناجم عن ذلك- بين أفراد المجتمع من جهة أخرى، كما لا يخفى ما لصفة الحسد من أثر في انصداع وحدة المجتمع وضعف قوته.

فبهذا التنزيل شُخص الدّاء ووصف الدواء وذلك بالنهي عن سلوك هذا المسلك في الجري وراء هاته الدعوات الخبيثة، ولكن بإعطاء كل ذي حقّ حقه كما قال ربنا ﷻ في تتمة الآية: ﴿ **لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا** ﴾ (النساء: 32).

---

1 - التحرير والتنوير، ابن عاشور، (28/5).

النتيجة:

بناء على ما سبق بيانه فإن تنزيل ابن عاشور هاته الآية على الواقع الحديث تطبيق عملي في توظيف النصوص القرآنية على الواقع المعاش.

النموذج الثاني: في تفسير قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلأَرْضِ** ﴾ (المائدة: 35).

الدراسة:

ذكر ابن عاشور خلاف العلماء في اعتبار البادية والحضر في تسمية المحاربِ محاربا ثم قال: "والذي نظر إليه مالك هو عموم معنى لفظ الحرابة، والذي نظر إليه مخالفوه هو الغالب في العرف لندرة الحرابة في المصر. وقد كانت نزلت بتونس قضية لص اسمه «وناس» أخاف أهل تونس بحيله في السرقة، وكان يحمل السلاح فحكم عليه بحكم المحارب في مدة الأمير محمد الصادق باي وقتل شنقا بباب سويقة"[1].

تنزيل ابن عاشور آية الحرابة على واقعة حدثت عندهم بتونس، حيث نفّذ في المحارِب الحكم الشرعي من اعتباره مفسدا في الأرض لإخافته الآمنين وترويعه المواطنين بسلبهم أموالهم وخمله السلاح عليهم، إنما هي دعوة منه -رحمه الله- لولاة الأمور بمواصلة تطبيق هذا الحكم ليستبد الأمن في ربوع الوطن والمجتمع المسلم، ولا شك أن العمل على استتباب الأمن عامل رئيسي في الحفاظ على المجتمع المسلم ومن ثمة بناء مجتمع قوي.

النتيجة:

تنزيل ابن عاشور لآية الحرابة في إصلاح ما وجد في المجتمع من فقد الأمن وسلب للأموال، فيه معنى إصلاح هذا الفساد الأخلاقي الناخر في قوة تماسك المجتمع المسلم.

النموذج الثالث: في تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَلاَ تَا ُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْ َرِ إِسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنعام: 122).

الدراسة:

قال ابن عاشور في معرض تفسيره الآية: " وهي مسألة -أي حكم الذبيحة التي لم يُسمَّ عليها- مختلف فيها بين الفقهاء على أقوال: أحدها: أن المسلم إن نسي التسمية على الذبح تؤكل ذبيحته، وإن تعمد ترك التسمية استخفافا أو تجنبا لها لم تؤكل، وهذا مثل ما يفعله بعض الزنوج من المسلمين في تونس وبعض بلاد الإسلام الذين يزعمون أن الجن تمتلكهم، فيتفادون من أضرارها بقرابين يذبحونها للجن ولا يسمون اسم الله عليها، لأنهم يزعمون أن الجن تنفر من اسم الله تعالى خيفة منه، (وهذا متفش بينهم في تونس ومصر) فهذه ذبيحة

1 - المرجع السابق، (182/6).

لا تؤكل"[1].

تنزيل ابن عاشور هاته الآية على الواقع جاء عن طريق استنباطه من النهي المذكور في الآية عن أكل الذبيحة التي لم يسم عليها، معنى مناف لعقيدة من تعمد بعضهم لعدم التسمية على الذبيحة قاصدين بها قرابين للجن، وهذا العمل مناف بلا شك للإخلاص الذي أمر الله به في كتابه وأمر به رسوله ﷺ في سنته.

النتيجة:

توظيف ابن عاشور هذا النص في معالجة أمر متفشٍّ في بلاده تونس وبلاد مصر من الذبح لغير الله، وحُكمُه على هذا الفعل بالتحريم وتمثيله بما هو سائد هناك، هو توجيه منه -رحمه الله- لترك مثل هاته الأمور المنافية لعقيدة المسلم.

النموذج الثالث: في تفسير قوله تعالى: ﴿ **خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ** ﴾ (العلق: 2).

الدراسة:

قال ابن عاشور في تفسير لفظ ﴿عَلَقٍ﴾ في الآية الكريمة: " ومن إعجاز القرآن العلمي ذكر العلقة لأنّ الثابت في العلم الآن أن الإنسان يتخلق من بويضة دقيقة جدا لا ترى إلا بالمرآة المكبرة أضعافا تكون في مبدأ ظهورها كروية الشكل سابحة في دم حيض المرأة فلا تقبل التخلق حتى تخالطها نطفة الرجل فتمتزج معها فتأخذ في التخلق إذا لم يعقها عائق كما قال تعالى: ﴿ **مُّخَلَّقَةٍ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٍ** ﴾ (الحج: 5)، فإذا أخذت في التخلق والنمو امتد تكورها قليلا فشابهت العلقة التي في الماء مشابهة تامة في دقة الجسم وتلونها بلون الدم الذي هي سابحة فيه وفي كونها سابحة في سائل كما تسبح العلقة"[2].

أدرجت هذا المثال وهو بمثابة تنزيل النص القرآني على واقع ما استحدث من العلوم، لبيان أنّ هذا الصنف من توظيف الآي القرآني في بيانها يندرج ضمن تنزيل النص القرآني على ما تُوصّل إليه من دقائق العلوم، وهو المسمى بالتفسير العلمي للقرآن. وفي هذا يقول الضامر معللا اقتصاره في كتابه على تنزيل النص على ما له صلة بالمجتمعات: " ولم أتطرّق إلى التفسير العلمي والاكتشافات الحديثة التي اجتهد فيها كثير من الباحثين بتنزيل الآيات عليها، لأنه موضوع شائك..."[3].

وهو بقوله هذا يقر بهذا النوع من التنزيل وعدوله عنه إنما كان لأسباب وقد ذكرها هناك.

أعود إلى تفسير ابن عاشور للآية، حيث ذكر أن العلقة التي هي أصل خلقة الإنسان، وتنزيله على ما توصل إليه العلم الحديث من استكشاف تلكم الجسم السابح في الدم

---

1 - المرجع السابق، (8-أ/40).

2 - المرجع السابق، (438/30).

3 - تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، عبد العزيز الضامر، ص 15.

والمكوَّن بعد اجتماع نطفة الرجل ببويضة المرأة.

وفي هذا التنزيل والتوظيف دعوة من ابن عاشور إلى اعتبار ما أخبر به القرآن من حقائق علمية لم تكن معروفة قبل الدّال على مصداقيته وأنه من لدن حكيم عليم.

النتيجة:

تنزيل النص القرآني واقع ما استحدث من العلوم فيه بيان لمصدرية القرآن وأنه كلام الله ﷻ ليس من كلام البشر.

الخلاصة:

من خلال ما اطلعت وسقت من الأمثلة التطبيقية لتنزيل النص القرآني على الواقع عند ابن عاشور تبين أن جل اهتمامه كان منصبا على الإصلاح العقدي؛ إذ هو ركيزة كل إصلاح وقاعدته التي يبنى عليها كل إصلاح سواه، قال رحمه الله: " وكان إصلاح الاعتقاد أهم ما ابتدأ به الإسلام، وأكثر ما تعرض له وذلك لأن إصلاح الفكرة هو مبدأ كل إصلاح ولأنه لا يرجى صح لقوم تلطخت عقولهم بالعقائد الضالة، وخسئت نفوسهم بآثار تلك العقائد المثيرة: خوفا من لا شيء، وطمعا في غير شيء، وإذا صلح الاعتقاد أمكن صلاح الباقي لأن المرء إنسان بروحه لا بجسمه"[1].

الخاتمة

وفيها أهم النتائج والتوصيات

النتائج:

1- طريقة ابن عاشور في تنزيل الآية على الواقع تمثلت في ربط ما دلت عليه الآية مع ما هو واقع في زمن من الأزمنة القديمة والحديثة.

2- أهم الجوانب التي اعتنى بها ابن عاشور بالإصلاح عن طريق تنزيل النص القرآني على الواقع هو الجانب العقدي الذي هو أساس كل إصلاح.

3- اهتمام علماء المغرب العربي ومنهم ابن عاشور بتوظيف تنزيل النص القرآني على الواقع بغية الإصلاح العقدي والأخلاقي وغيرهما على مستوى الفرد والمجتمع.

4- تنزيل النص القرآني على الواقع وإن كان مسألة اجتهادية إلاّ أنها تشبه إلى حدّ بعيد سبب النزول في بيان معنى الآية وتقريبها من فهوم الناس.

5- من فوائد تنزيل النصوص القرآنية على الواقع ضبط وتوثيق تواريخ الحوادث والقضايا الاجتماعية والسياسية والدينية وغيرها.

6- قد يكون التنزيل وارد على أحداث أمم سبقت لكن فائدتها تطال واقعنا الحديث وفي هذا بيان لصلوحية القرآن في جميع الأزمنة والأمكنة للإصلاح على مستوى جميع الميادين.

7- لا يشترط في التنزيل التصريح بما عليه واقع الناس بتسمية المخالف مثلا، إنما قد يكتفى

1- التحرير والتنوير، ابن عاشور، (194/3).

بالتلميح قصد التقويم الإيجابي، وذلك حسب ما يقتضيه الواقع وتقدير المصلحة والمفسدة.

التوصيات:

1- تعميم هاته الدراسة عند مفسري المغرب العربي في جميع أنواع الإصلاحات، تكون في شكل بحث ماستر.

2- اقتراح ملتقى يهتم بجانب الإصلاح العقدي والفكري عند مفسري المغرب العربي.

3- إجراء دراسات بحثية وملتقيات تهتم بالإصلاحات من الجانب الأخلاقي خاصة ونحن في زمن كثرت فيه الآفات الاجتماعية من قتل بغير حق وتجارة وتعاطي مخدرات وغيرها.

4-اقتراح جملة من البحوث في مرحلة الماستر تهتم بجمع الآيات التي تعالج بتنزيله على الواقع مختلف الآفات الاجتماعية ودراستها عند علماء المغرب العربي قديما وحديثا لمعرفة كيفية إسقاطها بين القديم والحديث لعلها تثمر حلا لمعضلات العصر.

هذا ما جادت به القريحة وسال به القلم، فما كان من صواب فمن الله وحده وأشكره على ذلك، وما كان من سهو ونسيان فمني ومن الشيطان ونعوذ بالله من الخذلان وصلى الله وسلم على نبينا محمد ﷺ.

فهرس المراجع

* القرآن الكريم برواية ورش عن الإمام نافع.

1 - أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ابن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع- تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر، ط 2. لا سنة نشر.

2- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس، ط: 1984 هـ

3- التعريفات الفقهية، محمد البركتي، دار الكتب العلمية، ط 1: 1424هـ / 2003م.

4- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية-القاهرة، ط 2: 1384هـ/ 1964 م.

5- تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين دراسة وتطبيق، عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط 1: 1428هـ/ 2007م.

6- شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، بلقاسم الغالي، دار ابن حزم، ط 1: 1417هـ/1996م.

7- صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط 1: 1422هـ.

8- صحيح مسلم، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط 1: 1427 هـ/2006 م.

9- فجر الإسلام، محمد أمين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهر –مصر، د ط ولا ت.

10- كتاب التعريفات، الجرجاني، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت -لبنان

11- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر – بيروت، ط 3: 1414 هـ

12- محمد الطاهر بن عاشور، علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلومه، إياد خالد الطّبّاع، دار القلم، ط 1: 1426هـ/2005م.

13- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط: 1399هـ / 1979م.

14- مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط: 1390هـ/ 1980م.